الفصل الثاني

بين الإنسانية والنبوة

- شرف النسب وتداعيات اليتم
- مفازة ضيقة وعالم واسع
- التوحيد المطلق جوهر الحقيقة
- رحمةٌ للعالمين

obeikandl.com

شرف النسب وتداعيات اليتم:

" السيد الأكرم الذي شرف الناس بوجوده هو (محمد بن عبد الله) من زوجه آمنة بنت وهب الزهرية، القرشية (ابن عبد المطلب) من زوجه فاطمة بنت عمرو المخزومية، القرشية، وكان عبد المطلب شيخاً مُعَظَّماً في قريش يصدرون عن رأيه في مشكلاتهم ويقدمونه في مهماتهم (ابن هاشم) من زوجه سلمى بنت عمرو النجارية، الخزرجية (ابن عبد مناف)، من زوجه عاتكة بنت مرة السلمية، (ابن قصي) من زوجه حُبَّى بنت حليل الخزاعية، وكان إلى قصي في الجاهلية، حجابة البيت وسقاية الحاج، وإطعامه، المسمى بالرفادة، والندوة وهى الشورى، لا يتمُّ أمرٌ إلا في بيته، واللواء، لا تعقد رايةٌ لحربٍ إلا بيده، ولما أشرف على الموت جعلها في يد أحد أولاده: عبد الدار، لكن بني عبد مناف أجمعوا رأيهم أن لا يتركوا بني عمهم عبد الدار يستأثرون بهذه المفاخر، وكاد يفضى الأمر إلى القتال لولا أن تدارك الأمر عقلاء الفريقين، فأعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة فدامتا فيهم إلى أن انتهنا إلى العباس بن عبد المطلب، ثم لبنيه من بعده، أما الحجابة فبقيت بيد بني عبد الدار، وأما اللواء فدام فيهم، حتى أبطله الإسلام وجعله حقاً للخليفة على المسلمين يضعه فيمن يراه صالحاً له، وكذلك الندوة، وقصى (ابن كلاب) من زوجه فاطمة بنت سعد وهي يمانية من أزد شنوءة (ابن مرة) من زوجه هند بنت سرير من بني فهر بن مالك (ابن كعب) من زوجه وحشية بنت شيبان من بني فهر أيضاً، (ابن لؤي) من زوجه أم كعب مارية بنت كعب من قضاعة (ابن غالب) من زوجه أم لؤي سلمى بنت عمرو الخزاعي (ابن فهر) من زوجه أم غالب ليلى بنت سعد من هذيل. وفهر هو قريش – في قول الأكثرين –

وكانت قريش اثنتي عشر قبيلة: بنو عبد مناف (ابن قصي) وبنو زهرة بن كلاب، وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة ، وبنو تيم بن مرة، وبنو عدي بن كعب وبنو سهم بن (عمرو) بن هصيص بن كعب وبنو عامر بن لؤي، وبنو تيم بن غالب، وبنو الحارث بن فهر، وبنو محارب بن فهر، والمقيمون منهم بمكة يسمون قريش البطاح، والذين بضواحيها ، قريش الظواهر.(ابن مالك) من زوجه جندلة بنت الحارث من جرهم (ابن النضير) من زوجه عاتكة بنت عدوان من قيس عيلان (ابن كنانة) من زوجه برة بنت مر بن أُدّ، (ابن خزيمة) من زوجه عوانة بنت سعد من قيس عيلان، (ابن مدركة) من زوجه سلمى بنت أسلم من قضاعة (ابن إلياس) من زوجه خندف المضروب بها المثل في الشرف والمنعة (ابن مضر) من زوجه الرباب بنت جندة بن معد (ابن نزار) من زوجه سودة بنت عك، (ابن معد) من زوجه معانة بنت جوشم من جرهم (ابن عدنان)" .(1)

إن عراقة النبي الشريف صلى الله عليه وسلم تكتسب دلالة مزدوجة في كون طهارة النسب ونقاؤه سمة لصيقة بالنبوة من جهة، وسمة ضرورية لنبي يخرج من أمة العرب من جهة أخرى، وهى أمة الأنساب والأحساب، لا تعتد بتأثيرٍ ولو يسير لرجل لا يتمتع بهذا النسب العريق، فمضمار الحكم والرئاسة والتميز قرين النسب التليد والحسب الشريف. وقد كان هذا النسب مؤسساً لعلاقة العرب في مكة بمحمد صلى الله عليه وسلم فيما قبل بعثته الميمونة، إذ إن ما تمتع بهصلى الله عليه وسلم من صدقٍ وأخلاقٍ رفيعة، ما كان له أن يُمكِّن في قلوب القبائل وعقولها لرجاحة عقله وسداد رأيه دون أن يكون ذا نسب وعراقة، فأنَّى له أن يفصل في

حكمٍ بين متنازعين، أو يقدم حلاً لمشكلة ما أو يشهد عهداً أو حلفاً، مهما اكتسب من سعة الأفق وقوة التأثير بغير نسب يعرفه العرب ويقبلونه بحكم ثقافتهم القبلية والمضطلعة في الأساس بنبل العرق ونقائه، بل ومجده .

وبرغم أن هذا النسب هو ما عضَّد من رواج شخصية النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بين بنى قومه وبني جلدته، إلا إنه هو ذاته – النسب– ما دفع بعض رجالات قريش لأن يستنكروا على بنى هاشم أن يكون منهم نبى بفعل التنافس التاريخي بين بنى هاشم وبين بنى عمومتهم من بني أمية، حيث اعتبر هؤلاء الآخرون أن ما يمكن أن يقوم به بنو هاشم من أعمال الإجارة والإطعام والإكرام في استطاعتهم أن يقوموا بأعمالٍ موزاية لها فلا يفقدون سطوتهم، أما خروج النبي من بنى هاشم فهو ما يستعصي على بني أمية تقديمه، إذ هو ذروة المجد والرفعة، وقول أبى سفيان هنا معروف ومشهور حينما تحدث إلى بنى هاشم قائلاً: كنا كفرسي رهان، إذا أطعمتم أطعمنا... إلخ ما هو مشهور ومثبوت في كتب السير والتاريخ، حيث استنكر زعيم بنى أمية أن يكون نبياً من بني هاشم، يوصد باب المنافسة ويحسمها لهم – بني هاشم– ، وهي نظرة ضيقة تعكس عمق التأثير لفكرة الأنساب في عقل ووجدان العرب وقبائلهم، إذن، ثمة قَصْديَّة في نبل وعراقة نسب محمد صلى الله عليه وسلم تُخَوِّلُ له ابتداءاً مبرر الدعوة والنبوة بين قومٍ حاز النسب فيهم المكانة الأكبر في صناعة التأثير وقيادة الناس، غير أن هذه العراقة لم تكن فقط البوابة السحرية للتكوين النبوي النموذجي إذ إن تلك العراقة في النسب تفترض نوعاً من الرفاهية لصاحبها قد يمنعه من تجشَّم عناءً يصاحب دعوةً لها مسئولياتها ومشاقِّها كدعوة النبى الخاتم، كما أن الجاه

والسطوة المصاحبين بالتبعية لكل ذي نسب ربما تورث صاحبها قسوةً في القلب والطبع، تجعل النفاذ لأفهام الناس وقلوبهم أمراً بالغ الصعوبة.

كان ضرورياً من هنا أن يتسع تكوين النبى صلى الله عليه وسلم ليشمل أُسُسَاً تقربه أكثر من الناس بكافة طبقاتهم ونوازعهم ومشاربهم، فاجتمع فيه صلى الله عليه وسلم إلى جانب نسبه العريق رقة الفقراء وتواضعهم، وإمكانية تحملهم لمشقاتٍ ينوء (ينوء) بحملها رجالٌ أُثْخِمُوا بالثروة والجاه.

فكونه صلى الله عليه وسلم ذا نسب جعله مقبول النصيحة قبل بعثته، وجعله بعد البعثة مُنْطَلَقاً من ذات القبول لدى قومه، كما أن كونه فقيراً جعله مجرداً مما يلحق الأغنياء من تجبر وإمعانٍ في حب الثروة والتسلط.

كان نسبه طرفاً في مفارقة صنعها يُتْمُه، ذلك الذي ينزع عن صاحبه ما يتمتع به من ينشأون في كنف آبائهم ورعايتهم، وينزع عنه أيضاً مكانة كبيرةً لا يوليها العرب في جاهليتهم لليتامى فقراءً كانوا أو أغنياء، حتى أن مرضعات البادية جعلوه صلى الله عليه وسلم خياراً أخيراً لهم، فاحتضنته حليمة السعدية بعد أن تركته غيرها من المرضعات؛ لانقطاع أملهن فيما يحصلون عليه من أمه الأرملة التي تساءلن: ماذا عساها أن تعطيهن وهى بغير عائل لوليدها يجزل لهنَّ العطاء؟

"وكون محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم من اليتامى هو الذي أنبت المشكلة، حيث إن السادة من العرب كانوا يضطهدون اليتامى ويقهرونهم ويذلونهم ويعاملونهم معاملة غير كريمة. لم يكن من اللائق أبداً أن يسلموا قيادتهم وزمام أمورهم في مجتمعهم إلى واحدٍ من اليتامى، مهما يكن حظه من الفقر والغني، إذالكل في نظرهم سواء(2)."

يا لها من مفارقة، نسبٌ شريف يعرفه الجميع ويجلّونه، ويُتْمٌ يُخْرج صاحبه من دائرة التميز القبلي المقيت، بقدر ما أعطاه النسب مكانة ورفعة، بقدر ما أخذ منه اليتم وأضفى على دعوته صعوبة ومشقة، مفارقة بقدر ما تحطم مقاييس ومعايير النبوة في هذا المجتمع، بقدر ما تسبغ صفة العمومية والشمولية على دعوة ذاك اليتيم التي لم تقتصر على الخاصة وعلية القوم، وإنما شملت كل أفراد المجتمع، كل مجتمع على كوكب الأرض، لا إقصاء ولا نفي، بل عدلٌ ومساواة وحرية، ليس ذلك فقط، بل إن تداعيات اليتم امتدت لتصيغ نفس النبي صلى الله عليه وسلم صياغةً تبتعد عن التدليل الذي يجرد صاحبه من قوة الاحتمال والجلد، وهو ما لم يكن مناسباً لعظم المهمة، وخطورتها ذات الأبعاد الإنسانية والكونية المرتقبة .

كان يتمه صلى الله عليه وسلم وسيلة ذهبية، لكي ينفرد بنفسه في ساعات تأمله في الحياة والمجتمع والكون، ليرفض ما رفض ويبحث عما يؤرقه من شئون الدين والإلوهية فتوجهت طاقته إلى مبتغاه الذي يتجاوز الآفاق الضيقة للناس في مكة، فلم يركن إلى ما ركنوا إليه ولم يستسلم لتُرَّهات عباداتهم فامتلك الحرية في الانعزال، والتأمل في غار حراء يتلمس الحقيقة الغائبة عن قومه في حلهم وترحالهم وفى إقامتهم ومعاشهم، في مجونهم وفى ملاهيهم بالمال والسلطان والكبرياء، وفي نفيهم للبعث وتكريسهم لفكرةٍ ما إن هي إلا حياتنا الدنيا

كان ثمة صوت يؤكد أن الحياة يستحيل أن تستمر وتيرتها هكذا، ليس الشقاء حتمًا على الأشقياء وليس الغنى والجاه حتمًا على الأغنياء وذوي النفوذ، لابد وأن ذلك يفضي لشيء آخر يجني من خلاله كلٌّ

صاحب عمل ثمرة عمله وفق عدالة مطلقة تضيق عن استيعابها عقول أهله وبني جلدته المستئثرون بالدنيا والمستئثرة بهم .

كان من الممكن أن يوفر له النسب الشريف والأصل العريق إمكانية أن يقود ويؤثر، لكنه لم يكن كافياً لأن تنطلق دعوته في بنى قومه المأخوذين بسطوة الأحساب والأنساب، فتدفعهم لإدماغ الدعوة بما اعتادوه من صلف وكبرياء، فتنحسر النبوة في دائرة الشرف القبلى وتفرغ من مضمونها العام الشامل، فكان اليتم طريق الشمولية تلك لتنفذ الدعوة إلى الجميع، فيُصْدَمُ الكبار في رواسخهم البالية وينفتح للبسطاء بابٌ واسعٌ للعدالة والسمو الروحي ويصبح لحياتهم معنى يؤازرون من أجله صاحب الرسالة الخاتمة محمدصلى الله عليه وسلم.

مفازةٌ ضيقة وعالمٌ واسع

بين ظهراني العرب الغارقين في الوثنية المستسلمين لعبادة الأصنام التائهين في لُجَّة القبلية بأدرانها وعوالقها البالية، المنسحقة ذواتهم إزاء جيرانهم العتاة من الفرس والروم، فقراء مقهورون، متاهة ضاع فيها الإنسان في وجود واسع وغامض ومآلٍ غير معلوم. ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، يتيماً، بلا عائل سوى جدةٍ وأمه الذين توفيا في طفولته،

فما عساه أن يتربى ويتعلم في هذه البيئة، حتى في حياة أبيه وجده، برغم كل ذلك كان لديه صلى الله عليه وسلم تكويناً أخلاقياً ومعرفياً، لم يكتسبه من تربية دنيوية أو علم مقروء، فقد كان أمياً، وإنما ما زرعه فيه ربه العظيم جعله مختلفاً عميق الاختلاف عما هو سائد وعما هو متوقع لمن في ظروفه وحياته، برغم كل ذلك عُرف رسول الله صلى الله عليه وسلم في قومه قبل البعثة بالصدق والأمانة، حتى لقبوه بهما واستأمنوه على أموالهم وأودعوها إياه فكان أهلاً لها، نفر محمد بن عبد الله من شرور وآثام قومه التي عايشها، فطهر قلبه وعفّ لسانه وعزف عن سفك الدماء ونهب الأموال، بل أصلح ما نشب بين قومه من نزاعات وشقاقات بحكمته وحلمه، تلك الصفتين اللتين جنبتاه عبادة الأوثان في ظل معايشته لأناس توارثوا هذا السفه عن آبائهم وأجدادهم، فكان اختلافه عن هذا السياق بمثابة شعاع من النور يخترق دياجير الظلمة وقتامتها(3)، وكما استقطب محمد صلى الله عليه وسلم إعجاب وثقة قومه واعتمادهم عليه، استقطب شخصية ذات عقل راجح ونضج أسهمت التجارب والسنون في صناعته، إنها خديجة بنت خويلد تلك السيدة ذات الأربعين، التي اعتركت التجارة وخبرت معادن الرجال من خلال عملها في التجارة مع عيون القرشيين، ومن خلال زواجها من اثنين من سادتهم، جعلها ذلك تتطلع إلى الزواج منه صلى الله عليه وسلم بشخصيته وخصاله الآسرة، لقد عرفت فيه صلى الله عليه وسلم نموذجاً مثالياً في رجلٍ عزَّ أن يوجد مثله في هذا الزمن فهالها فيه الإنسان، قبل أن تعرف فيه دلالات النبوة(4) وقَّر له عمله مع السيدة خديجة نوعاً من السعة في المال، تلك السعة التي أسرت قومه وأذكت في نفوسهم التطلع إلى المزيد منه طمعاً فيما يُوجِدُه المال من

الجاه والتسلط، لكن نفسه صلى الله عليه وسلم سلمت من هذا الأسر، بل ازداد عزوفاً عن فسوقهم وشركهم، وحصَّنته حكمته من الانزلاق فيما يعتور حياتهم من زلل وإثم، فلم يقاسمهم مفردات حياتهم إلا حينما حكم فيما شجر بينهم من خلاف على الحجر الأسود وموضعه من الكعبة، فأدلى فيه بحكمته وحسمه بأمانته وحرصه على رأب تصدعات القبائل وشقاقاتهم.

وظل بعد ذلك بخمس سنوات قادمة يتعبد في غار حراء بعد أن ازداد ضيقة بالظلام المخيم على العرب، فطلب النجاة من الانحلال الخلقي، وفساد الذمم والنفوس وأدران الشرك والوثنية في شيء يلائم فطرته الصافية، فركن إلى التحنث والتأمل بحثاً عن نور يبدد به ظلام قومه، ظل في غار حراء يطلب مراده، إلى أن أذنت ساعة الخلاص الإلهي بالنور القدسي الذي تاقت إليه نفسه، فهداه ربه جل وعلا أنه رسول الله إلى العالم ورسالته هي القرآن الكريم ، وهو مأمور بالدعوة به وإليه في جميع الآفاق، وبقدر سعادته بما اهتدى إليه، بقدر انبهاره وفزعه من كونه هو المختار لحمل أمانة الرسالة ومسئوليتها العتيدة ، بقدر هذا وذاك، بقدر نزوعه إلى التأكد من الأمر، لاسيما وأن الوحى انقطع بعد المرة الأولى فترة اختلف المؤرخون في تقديرها، لكن الراجح بينهم ما رُوِىَ عن ابن عباس أنها أربعين يوماً، عاد بدء الوحي بعد أن حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الانقطاع، وبعد أن كثر تردده على غار حراء وعلى رُءوس الجبال تشوقاً لعودة الوحى واستئناف رسالة السماء، فتبدى له جبريل منادياً : يا محمد أنت رسول الله حقاً وإنا جبريل، وتراءى له في كل آفاق السماء، فسقط إلى الأرض رعباً وهولاً، وذهب إلى خديجة مرتعداً (5) وهو يقول: دثرونى، فنزل قول الله تعالى بمطلع سورة المدثر

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥) [المدثر] .

تدرج محمد صلى الله عليه وسلم في دعوة قومه، حيث ظل بعد بداية مهبط الوحي عليه ثلاث سنوات يدعو إلى الله سراً، يتعبد ويتنسك زاهداً ويقوم الليل مُرَتِّلاً للقرآن الكريم، ومن خلفه أصحابه مقتدين به، وكان هؤلاء من السابقين إلى الإسلام ، يجتمع بهم في دار الأرقم بن أبى الأرقم، وقد كانوا آنذاك حوالي أربعين شخصاً سارعوا بتصديقه والإيمان به والالتفاف حوله، وكان منهم أبو عبيدة بن الجراح وأبو سلمة بن عبد الأسد ابن عمة الرسول صلى الله عليه وسلم برة ، وزوجته أم سلمة وعبد الله بن مسعود وسعيد بن زيد بن عم عمر بن الخطاب وزوجته فاطمة أخت عمر، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن جحش بن أمية ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأسماء بنت أبي بكر الصديق وأختها عائشة وهي صغيرة السن(6).

وبعد هذه السنوات الثلاث خرج على قومه يعلن لهم " إن هذه الأصنام التي تعبدونها وتعكفون عليها لا تضركم ولا تنفعكم فاتركوها، وإن هذه الأرض والشمس والقمر والنجوم وما في السموات والأرض من القوى ما خلقها إلا الله وحده، وهو خالقكم ورازقكم وهو الذي يميتكم، ثم يحييكم، فلا تعبدوا غيره ولا تستعينوا إلا بإياه، ولا تطلبوا قضاء حاجتكم إلا منه، ومن ثمَّ ما تأتونه من أعمال السرقة والنهب والفاحشة وإدمان الخمر ولعب الميسر، فانتهوا عنها، واصدقوا في أقوالكم وأعمالكم واعدلوا، ولا تقتلوا نفساً إلا بحق وكلكم بشر والبشر كلهم سواء"(7).

obeikandl.com

انطلقت دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، برغم المعارضة الشديدة التي تلقاها من مشركى مكة، وبرغم إيذائهم له ولأصحابه وتسفيههم آرائه، لم ينثن ولم يلن لإيذاء أو إغراء قاموا به تجاهه وظل يدعو لرسالته صابراً مثابراً ومعلماً لأصحابه متمثلاً لكل ما يأتيه من السماء، لقد كان موقناً أن المكان الذي تلقى فيه الوحى والوطن الذي كلف ابتداءً بانطلاق دعوته منه ما هو إلا مفازة صغيرة ستفضي برسالته إلى العالم الكبير ليؤسس بدينه ودعواه ما استعصى على الأنبياء قبله، ليؤسس سعادة البشرية وخلاصها طالما اتبعوه وساروا على هديه المتصل بالسماء أوامراً ونواهيه.

لم يدر بخلد الأباطرة والقياصرة آنذاك أن يخرج من عرب الجزيرة من يجمعهم ويقودهم بمشاعل الهدى الإلهي ليرسي من بعده تابعوه والمؤمنون برسالته على طول التاريخ أرفع وأسمى مبادئ للإنسانية والسلام .

من هذه المفازة الضيقة في غار حراء خرجت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم لتعلن تحرير العقل البشرى واستنارته على بيِّنة من هدى السماء، فيُخْتَتَمُ دور الأنبياء برسول الإنسانية فيكون حجة على الناس إن هم زاغوا عن الحق وابتعدوا عن جادة الطريق

التوحيد المطلق: جوهر الحقيقة

جاء الإسلام، وقد قطعت البشرية أشواطاً باتجاه فكرة الألوهية، ما بين رؤى وضعية وأخرى سماوية تأثرت بالبشر الذين أعملوا فيها نظرهم وأسبغوا عليها مما هو قارٌ في ذاكرتهم وتاريخهم، فنزعوا عنها نقاءها وسموها، فمثلاً في الثقافة اليونانية نجد الآلهة " لهم نزوات البشر، ولكن لديهم قدرات الآلهة، وكان تزاوج الآلهة بالناس وتناسلهم أمراً مقرراً ومألوفاً، وكان بعض آلهة اليونان يتقمص شكلاً بشرياً ليتصل بامرأة

جميلة، وكان يمكن لابن هذه المرأة أن يكون نصف إله، كما هو شائع في أساطير اليونانيين(8)."وفلسفة اليونان الطبيعية، اتجهت أول الأمر إلى طبيعة الوجود دون طبيعة الله، فتحدثت عن " خليقة حية دون خالق حى"، إلى أن ربطها أكسانوفان بفلسفة الشرق القائمة على عالم واحد برعاية إله واحد" فرأى – أكسانوفان – أن مردَّ الكون لله، وازداد ارتباط هذه الرؤية بفلسفة الشرق، فسخِر أكسانوفان من إمكانية أن يكون الله في صورة بشر، وتابعه فيثاغورث، حيث رأى أن العالم نوع من تجلى نور الله، إلا إنه تأثر بفكرة تناسخ الأراوح كما عند الهنود، ثم جاء سقراط فكان جل اهتمامه بالعقل الإنسانى دونما البحث في أسرار الله، وحينما جاء أرسطو حاول أن يتجاوز ميثولوجيا اليونانيين من خلال الإدراك العقلى للإله، نجده قد وضع حدوداً لعلمه وإرادته، فاعتقد أن الله لا يعقل ذاته أو ما دونها، ويتنزه عن الإرادة لأن الإرادة طلب في رأيه، والله كمال لا يطلب شيئاً غير ذاته، ويجلُّ عن علم الكليات والجزئيات، لأنه يُعْتَمَدُ في حسبانها على العقول البشرية، ولا يعنى بالخلق رحمة ولا قسوة، لأن الخلق أحرى أن يطلب الكمال بالسعى إليه(9).

الحديث عن فكرة الألوهية عند اليونانيين، قد لا يختلف كثيراً عنه لدى الكونفوشيوسين والزرادشين وغيرهم، ومن هنا يتأكد بُعْد الإسلام عن هذه الأفكار، ويُفْتَرضُ أن الألوهية في الإسلام تقترب أكثر من تفاصيلها في المسيحية واليهودية، فالثلاثة (الإسلام والمسيحية واليهودية) يخرجون من معين دينى واحد إلا إن التدقيق اليسير سرعان ما يدفعنا للجزم بعمق فكرة الألوهية والتوحيد في الإسلام عنها في اليهودية والمسيحية، نظراً لما

شاب الأخيرين من أعمال التأويل البشرى الناتج عن تنازع فرق أهل الكتاب .

أولاً: الألوهية والتوحيد في اليهودية

فى الدين القبلى الأول للعبرانيين كان الإله يُنْزِلُ المصائب أو يُنْعِمَ النعم على الرجال والنساء وفقاً لمشيئته فحسب، وأحياناً كان يتم ذلك بصورة تعسفيه وكان عداءً يقع بين الله وبين البشر على عكس الرؤية الإسلامية التي تُرْجِعُ أي حدث يمر بالإنسان إلى تصور أقرب لسنة الطبيعة أو الناموس الأعظم(10).

وبرغم أن اليهود عبدوا الإله باسم (إيل) بمعنى القوي في اللغة الآرامية، إلا أنهم – اليهود – ظلوا زمناً طويلاً يسبغون على (الإيل) الصفات البشرية، وينسبون إليه أعمال الإنسان وحركاته، فذكروا أنه كان يتمشى في الجنة، وأنه كان يصارع ويأكل ويشرب وأنه دفن موسى حينما مات في موآب(11).

كما قالوا عنه أنه (يحب ريح الشواء، ويستظل بظلال الحديقة، وجعلوه في منزلة عزازيل شيطان البرية فتقربوا إليه – عزازيل – بمثل ما تقربوا به إلى (الإيل) (12). وبعد نزول نبى الله موسى بالتوراة عبد اليهود الإله باسم " ايهوه" لكنها عبادة تفتقر إلى التوحيد المطلق إذ أن "يهوه" إله بنى إسرائيل كما أن لكل شعب غيرهم إله يعبدونه لكنه – " يهوه" – استأثر بهم دون الشعوب، واستأثروا به من دون الآلهة التي لم ينكروا وجودها، بل إنهم أحياناً كانوا يتأرجحون بين إلههم وبين آلهة أخرى، وحين يتركونه ثم يعودون إليه، فهم يعودون إليه اعتقاداً أنه أجدر بعبادتهم

إياه لما له من سطوة عليهم وقدرة على حمايتهم أكثر من غيره من الآلهة(13).

ولم تكن فكرة كونهم شعب الله المختار ثابتة بطول مراحل تاريخهم فهى تتسع في بداية الأمر لشعب إبراهيم كله، ومع تواتر القرون شيئاً فشيئاً يضيق هذا الاختيار ليشمل أبناء يعقوب ابن إسحاق ثم قوم موسى، ثم أبناء داود ومن يدينون بالولاء له ولعرشه ومن ثمَّ تَحَتَّم ظهور المسيح المُخَلِّص لهم من كل هذا الغى(14).

ولم يقترب اليهود من فكرة تفرُّدِ " يهوه" بالألوهية دون غيره إلا في عهد (أشعيا الثاني) حيث شهد هذا العهد سقوط الممالك الكبرى وتداعيها في بابل ومصر وفارس، وهو الأمر الذي فسروه بأنه عقوبة أنزلها " يهوه" بهذه الشعوب التي أساءت إليهم، وهو الآن يبسط سلطانه على أرجاء الأرض الرحيبة مؤذناً بيوم الخلاص الموعود لبنى إسرائيل(15).

تدرجت فكرة الألوهية والتوحيد عند بني إسرائيل بدءًا من اعتقادهم بإمكانية تصور الإله في صورة الإنسان يأكل ويشرب ويتعب ويستريح، ويغار من منافسيه، ويختص قبيلته بالبركة والتشريع، وكانت هذه الصورة مقرونة أحياناً بعبادة الأصنام وأحياناً أخرى بعبادة الموتى، أو ظواهر الطبيعة وتماثيل الطواطم من الحيوان والنبات، ثم تطورت لديهم صفات الله إلى أن عبدوا الإله الواحد المُنَزَّه عن التجسد وعن خلائق البشر، القادر على كل شيء والعليم بما كان ويكون والرحيم المحب للرحماء ذوى البر والعدل والإحسان(16).

رفض الإسلام طرائق بنى إسرائيل في اكتشاف حقيقة التوحيد وجوهره، فقد كان – الإسلام – منذ البداية وبدعوة محمد صلى الله عليه

وسلم معلناً أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ليس من إله غيره، خالق الكون والبشر ومبدع نظامه والفاعل الوحيد في هذا النظام منذ نشأته أول مرة وإليه مآل الناس وحسابهم على ما اقترفوه في حياتهم الدنيا، يثيبهم عن صالحها ويجزيهم عن سيئها وفاحشها، ليس كمثله شئ، وتعالى عن نواقص المخلوقات وتبدلاتها .

ثانياً: الألوهية والتوحيد في المسيحية

دراسات كثيرة للكتاب المقدس أجمعت على أن عيسى لم يدَّع قط ، أو يقول عن نفسه أنه (ابن الله) فذلك تعبير لم يكن في الواقع ليمثل – بالنسبة لليهود – سوى خطأ لغوى فاحش، وضرب من ضروب السفه في الدين، كذلك لا يسمح لنا أي نص من نصوص الأناجيل بإطلاق تعبير (ابن الله) على عيسى، فتلك لغة لم يبدأ في استخدامها سوى المسيحيين الذين تأثروا بالثقافة اليونانية، إنها اللغة التي استخدمها القديس بولس، كما اسْتُخْدِمَتْ في الإنجيل الرابع "يوحنا"، وقد وجدا فيها معانى عميقة وعلى قدر كبير من الوضوح، إذ لن يجد القارئ الموضوعى البسيط، في أي ترجمة صحيحة للعهد الجديد أية جملة أو كلمة قالها عيسى يستنتج منها ذلك الافتئات المنسوب إليه ظلماً وعدواناً، إن عيسى ليس الله، وكل منهما منفرد في الإنجيل بمكانته: الله الرب وعيسى العبد لا أكثر ولا أقل" (17).

من ذلك يتأكد "أن تعاليم المسيحيين الأوائل كما عبر عنها الإنجيل كانت مختلفة عن تعاليم الكنيسة التي جاءت بعدها ابتداءً من لاهوت بولس، كما كانت مختلفة عن التعاليم الأخرى في العالم سواء اليهودية أو الوثنية، إن المسيحية كدين أخلاقى في كل العصور موجودة في الإنجيل،

أمـا المسـيحية كأسـرار مقدسـة وديـن خـلاص، فموجـودة فـي الرسـائل الإنجيليـة، أما الإيمـان والأخـلاق فيرجعـان إلـى عيسى وإلـى الإنجيل. لقد انتهـى بظهـور بـولس تـاريخ عيسـى البسـيط المجيـد، وبـدأ تـاريخ الـدين المؤسس، فعلى خلاف الإنجيل، اعترف بولس بالملكية والعمل والاقتصاد والألقـاب والرتـب والـزواج والطاعـة واللامسـاواة، بـل اعتـرف بالعبوديـة، فأصـبح عيسـى والإنجيـل فـي ناحيـة، والكنيسـة واللاهـوت فـي ناحيـة أخرى(18)".

وبـرغم وجـود محـاولات للإصـلاح حاولـت محاربـة مـا شـاع من بدعة التثليث ومحاولة نفي الصلة بين الله وبين عيسى بن مريم عليه السلام إلا صلة العبودية، عبودية عيسى لله رب العالمين، إلا إن مجمع نيقية المنعقد في عام 325م حكم بمساواة عيسى لله في طبيعته وفي جوهره، بل وتمت مطاردة الأريوسيين أتباع آريوس، هذا المصلح الشهير المتوفى عام 336 م وإدانـتهم إدانـة كاملـة فـي مجمـع القسـطنطينية عـام 381 م، واتحـدت الكنيسة مع السلطة في محاربة التوحيد وإحراق الكتب الداعية 'ليه ووصم كل داع لـه – التوحيد – بالإلحـاد والخـروج علـى الـدين والدولـة، وسيطرت الكاثوليكية كمسيحية جديدة قائمة على التثليث، وامتلأت الكنائس بالتماثيل والبخور والتعاويز(19).

حـدث كـل ذلـك بـرغم أن المسـيحية فـي جوهرهـا تـرفض أي صـلة عضوية بين الله وبين الإنسان، وبرغم ما عُرف من علاقة النبوة بين الرب وبين المسيح برغم ذلك عرفت نظريات التثليث، تلك الأفكار التـي أصـابت العقيدة المسيحية، من جراء التأثيرات الغنوصبة والباطنية والعبادات الوثنية

عند الرومان والإغريق، فاقتقدت المسيحية نقاء التوحيد المطلق لله الواحد القهار .

رفض الإسلام منذ البداية رفضًا قاطعًا هذه الأفكار ودعا الناس إلى نبذ ما توارثوه خطأ " من عقائد الشرك أو تماهي المسافات بين الخالق وبين عباده ممن خلقهم واستخلفهم في الأرض

(

يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ ى

عِيسه ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِ

وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ

لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾). [النساء: 171]

كما فنَّد القرآن الكريم فكرة ألوهية المسيح من خلال المنطق حيث المقدمة توضح خصائص الرب بأنه واحد وخالق وأنه تعالى غير محسوس، فالرب لا يأكل، إذن المسيح ليس إلهاً، كما استنتج هذه النتيجة عن طريق استخدام البرهان الأكبر من البرهان الأصغر، فالله خلق آدم من تراب، فمن اليسير إذن خلق يسوع روحاً من مريم، كما فنَّد القرآن المواضع التي استدل بها النصارى على ألوهية المسيح وأثبت زيفها، وحينما تستعصى هذه الأدلة والبراهين ، يعمد القرآن الكريم بالإشارة إلى قسم الجماعة المعروف لدى العرب قبل الإسلام

(

فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ

وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ

Obeikandi.com

﴿) [آل عمران : 61] وفى حال نفاذ هذا الأمر يكون قسم الجماعة مساوياً لحكم الرب (20)، وبرغم أن القرآن الكريم أكد على استعصاء اكتشاف جوهر الله على العقل البشرى فاستخدم في ذلك الإشارات والرموز دون الإفصاح عن الطبيعة الإلهية التي يستحيل التعبير عنها صراحة إلا من خلال إيراد الآيات التي تقدم للإنسان من القدسية ما يتيح معرفة صفة من صفات الله عز وجل، برغم ذلك ، وبرغم عجز العقل البشرى عن الإحاطة بأعماق الطبيعة الإلهيه فإن التصور القرآنى عن الله لا يرفضه العقل، وإنما يوجبه حتى وإن لم يصل إلى كنهه وسره، فالعقل يلمس جانب الحق في هذا التصور ويتأكد من وجوب وجود الإله وضرورة كماله دون الإلمام بالماهية أو الكنه، فكانت الصورة القرآنية المعجزة للألوهية خالية من التعسف أو التكلف قريبة من النفوس مطمئنة لها وملهمة للإنسان معانى الحرية والرحمة والحق والعدل والجمال في ضوء ما يستسيغه العقل ويقبله في الوقتنفسهالذي ابتعد فيه التصور القرآنى للألوهية عن مجرد الإعلام بمعلومة تُفْهَمُ فهماً يقضي عليها، فأوجد القرآن القدر المطلوب من المعلوم والقدر المطلوب من المجهول الذي لا يناقض العقل، ولكن يُبْقى على روح الاستطلاع والاستشراف، كما أوجد القرآن الوسيلة للانتقال من المعلوم إلى المجهول ومطالعته(21).

من هنا كان الإسلام برؤيته تلك مصححاً ومحرراً للألوهية من إسار التصورات المحرفة في اليهودية والمسيحية، فإذا كان " يهوه" إله اليهود فقط دون شعوب البشر، فإن الإسلام أكد أن الله لم يلتزم بأى عهد خاص مع أي شعب، كما افترضت الشهادة الإسلامية بوحدانية الخالق هذه الوحدة سلفاً: وحدة الإله ووحدة الطبيعة ووحدة المثل ووحدة الإنسان، وهو

الأمر الذي لم يقره الغرب للإسلام وأرجعه إلى الفترة الأخيرة من الإمبراطورية الرومانية " حيث ساعدت تجربة الحياة في ظل كيان سياسى عملاق الناس على أن ينظروا للعالم المعروف لديهم كوحدة كلية، فلم تعد الآلهة والعبادات المحلية المرتبطة بنطاق محدود كافية. وتدريجياً وبشكل متزايد بدأ الناس يرون أن الله بشكل ما واحد، كما قال بذلك فلاسفة الإغريق" (22).

نجد أن هذا الأمر هنا واضحٌ اختلافه عن التوحيد العقدى الإسلامى، حيث انبنىالتوحيد الروحانى على هدف سياسى تجمعت من أجله آلهة الوثنية في إله واحد كنوع من التوحيد الامبراطورى ليس إلا، كما أن المسيحية عندما دخلت روما لم يقبلها الرومان وحاربوها في بادئ الأمر ثم آمنوا بها وتعصبوا لها مع مجئ قسطنطين ولكنهم أيضاً أسبغوا عليها فكرة التثليث (الأب والابن والروح القدس)، فصدق قول قاضى القضاة عبد الجبار ابن أحمد " إن النصرانية عندما دخلت روما لم تنتصر روما ، ولكن النصرانية هي التي ترومت" (23)وإذا كان ذلك الرأى من قبل فلاسفة مسلمين قدامى، فإن المؤرخين المحدثين من الغرب للأديان وتاريخها يؤكدون تلك الحقيقة في صعوبة نقاء فكرة التوحيد في مسيحية روما، فتقول كارين أرمسترونج "كانت تلك فترة انتقال أليمة، فحتماً كان هناك من الناس من هم على استعداد للانتقال الجدارى للديانة التوحيدية أكثر من غيرهم بينما ازدهرت الوثنية أيضاً لفترة طويلة بعد أن أصبحت المسيحية الدين الرسمى للدولة في الإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع الميلادى، فقد كان الحل الخاص بالديانة التوحيدية يعنى أن يتخلى الناس

بحزم عن الماضى الذي قدسوه، وقد وجد البعض تلك الفجوة في الاستمرارية مدعاة للقلق العميق" (24).

من هذا المنطلق كانت فكرة التوحيد في الإسلام مواتية تماماً للمرحلة الكبرى في نضوج الوعى الإنسانى الذي تملكته الأسطورة أزماناً طويلة حتى قبيل الإسلام كان العقل البشرى يسير حثيثاً باتجاه النضج الذي أفرغ أفكار التعددية الإلهية الوثنية من دلالاتها الطاعنة في تملك الإنسان وتسيير عقله، ومن ثمَّ كانت استجابة الشعوب إلى الإسلام سريعة بالقياس لغيره من الأديان التي كان العقل إبَّان انتشارها قاصراً عن إدراك جوهر الحقيقة في التوحيد المطلق، تلك الفكرة الأزلية التي صاغها الإسلام وتجاوبت معه الشعوب التي طال بها أمد البحث عن الحقيقة .

رحمةً للعالمين

رغم أن محمداً صلى الله عليه وسلم وُلد يتيماً، وبرغم ما يمكن أن يتركه فيه هذا اليتم من رقّة في الطبع والنفس، إلا أن ما اتصف به من دلالات الرحمة والتراحم لم يكن مبنياً في الأساس على ضعف وبؤس اليتم؛ فبنفس القدر الذي يُتَوَقَّعُ أن يورثه اليتم من رحمة ولين جانب، بنفس القدر الذي يؤهله صلى الله عليه وسلم لأن يكون قادراً على مواجهة وجوده بمفرده، قوياً باذلاً دون أبٍ أو عائل، ناهضاً بعبء هذه المواجهة بمفرده، فكانت الرحمة نابعة من وجوده الذي بدأ يتيماً.

فى أحاديثه عن الرحمة نجده صلى الله عليه وسلم ينأى عن مجرد شحن الأحاديث بشيء من العاطفة، وإنما يصدر حديثه عن خبرة بقيمة

الرحمة، محيطاً بها من كل جانب، مؤسساً لها قانوناً ودستوراً..."أرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء" هكذا قال محمد(25).

إن ما ترسَّخ فيه صلى الله عليه وسلم من أدبيات وتداعيات الرحمة بوصفه إنساناً ذا طبيعة خاصة في دعوته للرحمة واعتداده بقيمها يأخذ شكلاً آخر أكثر شمولية حينما يكون نبياً وخاتماً للأنبياء، إذ قيم الرحمة وما يتصل بها من العدل والمساواة ربما تكون حاضرة وفاعلة في مقولات وممارسات الكثير من المصلحين ومنظِّرى الثورات، لكنها – قيم الرحمة – هنا لدى المصلحين سرعان ما تنعطف كثيراً عن مبادئها وتكون برغم ما تختزنه في ذاتها دافعةً للقسوة والتجبر، وهو ما عُرف في الثورة الفرنسية والبلشيفية، وغيرهما، مما ازدحم برؤى المساواة والرحمة والتسامح.

فغنىٌّ عن التوضيح مقصلة الثوار الفرنسيين والجيش السوفيتي الأحمر بما شحنتا به التاريخ من أحداث دموية، نفي وإقصاء وتجبُّر..... النبوة لا تغنى وتثرى فقط رؤى المصلحين، وإنما تؤكد الشمولية الكونية لقيم الرحمة المطلقة، من خلال المصدر الإلهي الفيَّاض والممتد للرحمة والتراحم.

هذا المصدر الإلهي للرحمة لا يتجاهل ضعف البشر، وما يعتورهم من نقصٍ ربما يدفعهم للخطأ تحت وطأته، فبرغم المحاذير الإلهية وآليات الثواب والعقاب الصارمة التي تتوعَّد كل مخطئ؛ إلا أن الرحمة هنا أكبر وأكثر حضوراً من وعيد العقاب" أذنب عبدٌ ذنباً، فقال: اللهم اغفر ليذنبي، فقال الله تبارك وتعالى: علم عبدى أن له رباً يغفر ذنبه – فقد غفرت له ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب: اغفر لى ذنبى، فقال الله تبارك وتعالى – علم عبدى أن له رباً يغفر ذنبه – فقد غفرت له... ثم عاد فأذنب، فقال:

أي رب: اغفرلي ذنبي، فقال الله تبارك وتعالى علم عبدى أن له رباً يغفر ذنبه– فقد غفرت لعبدي، فليفعل ما يشاء" إن هذا العبد الذي صوره ﷺ في هذا الحديث ما هو إلا مثل لبنى البشر جميعاً الضعفاء أمام هوى أنفسهم(26)، وفى حديث آخر يوضح السعة المطلقة لرحمة الله تعالى فيقول صلى الله عليه وسلم" جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءً واحداً، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه"، يا لروعة ما بشرنا به محمد صلى الله عليه وسلم، إن ما تختلج به قلوب البشر، ومظاهر الحنو المعجزة في بقية الخلائق، التي تحتاج لرصدها متوناً لا نهائية الامتداد ما هي إلا جزء من مائة جزء من رحمة الله، أي أمان يمكن أن يثلج الصدور بهذه الكيفية، وإذا كان ذلك الجزء في الحياة الدنيا وبين ظهرانى الناس، فما بالنا بما احتفظ به الله لنفسه، ليس ذلك فقط، إنه صلى الله عليه وسلم يستمر في تعزيزه لبيان رحمة الله، ولا يفتأ يؤكد عليها (ويمعن في هذا التأكيد، حينما يشير إلى امرأة تحتضن ابنها بحنوٍّ وحبٍّ بالغ، فيقول لأصحابه: "أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ قال أصحابه: لا والله يا رسول الله، قال: الله أرحم بعبده المؤمن من هذه بولدها ".

ويقول عليه الصلاة والسلام: " إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيئ النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيئُ الليل"، ويقول أيضاً: " يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه، حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: رب أعرف، فيقول الله

له: فإنى قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى صحيفة حسناته" (27)

ودائماً يُبَلِّغ صلى الله عليه وسلم ما أمره الله سبحانه وتعالى أن يبلغه للناس أنه عز وجل رحيمٌ بعباده يغفر لهم ذنبوهم، وإنه جلَّت قدرته قريب من عباده، فليدعوه ليستجب لهم متى دعوه(

﴿٥٠﴾ ٱلۡأَلِيمُ ٱلۡعَذَابُ هُوَ عَذَابِي وَأَنَّ ﴿٤٩﴾ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ أَنَا أَنِّيٓ عِبَادِيٓ نَبِّئۡ ۞)

[الحجر]،

(

لَّيَسۡتَجِيبُواْ دَعَانِۖ إِذَا ٱلدَّاعِ دَعۡوَةَ أُجِيبُ قَرِيبٌۖ فَإِنِّي عَنِّي عِبَادِي سَأَلَكَ وَإِذَا

﴿١٨٦﴾ يَرۡشُدُونَ لَعَلَّهُمۡ بِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ لِي فـ) [البقرة].

كما يأمره الله تعالى أن يُطمئن من غلبتهم ذنوبهم ألا ييأسوا، فرحمة الله واسعة، وسيغفر لهم ذنوبهم جميعاً (28).

(

ٱلذُّنُوبَ يَغۡفِرُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهِۚ رَّحۡمَةِ مِن تَقۡنَطُواْ لَا أَنفُسِهِمۡ عَلَىٰٓ أَسۡرَفُواْ ٱلَّذِينَ يَٰعِبَادِيَ قُلۡ ۞

﴿٥٣﴾ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ هُوَ إِنَّهُۥ جَمِيعًاۚ ٱلذ) [الزمر] .

لقد كان في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم تجلٍّ قاطع الوضوح في أن رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم في أساسها رحمة عامة وشاملة للناس أجمعين" (﴿١٠٧﴾ لِّلۡعَٰلَمِينَ رَحۡمَةً إِلَّا أَرۡسَلۡنَٰكَ وَمَآ) [الأنبياء]

()

obeikandl.com

لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم ُؤۡمِنِينَ
(بِٱلۡم رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٨﴾) [التوبة].

رحمة الله الشاملة للعالمين والمرسلة مع خاتم الأنبياء تستهلُّ جلالها وقوتها ابتداءً من أعلى قممها حيث لا رحمة تعلوا على جلاء ظلمة القلوب وإنارة العقول بهدى الله تعالى بعد أزمانٍ طويلة من الضلال، إنها الحياة بعد الموت
(
أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ُمَٰتِ
ٱلظُّل لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ ﴿١٢٢﴾) [الأنعام].

أُخْتُصَّت الرسالة المحمدية الخاتمة والكونية في دعوتها بأنها لم تكن كغيرها من الرسالات السابقة عليها، فكان الناس في ظلالها آمنين مما حاق بأقوامٍ سبقوهم من ضربات قاصمة وخسف وإغراق وصواعق ومهلكات تحملها حجارة من سجيل تمطرها السماء (وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿٣٣﴾)[ا
لأنفال].

ولا شك أن هذا رحمة واسعة وفضل كبير اخْتُصَّت به الرسالة المحمدية التي ما كان غير" محمد" في كماله الكامل أن يحمل مثل هذه الرسالة العامة الشاملة، يقود فيها الإنسانية كلها إلى شطآن السلامة والأمن، محتملاً ما احتمل من أذىً وعَنَت وألم، دون أن تطاوعه نفسه الرحيمة في الانتقام ممن آذوه.ولو دعا دعوة عليهم لتفتَّحت لها أبواب السماء بالقبول، ولصُبَّت المهلكات على أعدائه صَبًّا، ولكن صبر

وصابر، واحتمل أن يُلْقى عليه الروث، وأن يُرْمَى بالأحجار من سفهاء ثقيف حتى تدمى قدماه، وأن تتبادره السهام في غزوة أحد حتى ينغرز المنفر في جبهته وتتكسر رباعيته، ويسيل دمه، ثم يسأله بعض أصحابه: ألا تدعو على قريش دعوة تمحقهم وتذهب بهم؟ فيجيب الرسول الرحيم " إنما بُعْثتُ هادياً، ولم أُبْعث لعّاناً" ويخفق قلبه الكبير بعواطف الحنو والرحمة ممزوجة بالإشفاق والأمل، وتتحرك شفتاه بهذه الكلمات الخالدة: "اللهم اهد قومى، فإنهم لا يعلمون" وقد تتدافع في صدر الرسول دوافع الغيظ والألم، وتتحرك في نفسه الرغبة في الانتقام من المعتدين الظالمين، فتصرف السماء هذه الرغبة إلى ما هو أليق بالرسول العظيم، وإلى ما هو أنسب لرسالته الرحيمة، تصرفه إلى التسامح والعفو الذين هما عنصران أساسيان من عناصر شريعة الإسلام (29)

(وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾) [الشورى]، وعلى الرغم من هذه المثالية في نبى الرحمة، إلا أنها لم تكن رحمة تُنْفَى معها الحقوق وتضيعها، وتجعل المعتدى يستمرئ قوته وجبروته، حيث لابد في مواقف معينة أن تقترن الرحمة بالعدل في الحفاظ على ذات الأمة وبنيانها، إنها – الرحمة– ليست قرينة الضعف أو التخاذل ، فحينما بغت قريش في غزوة أحد ومثلت بشهداء المسلمين وجُرِحَ الجسد الشريف لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومثَّلت هند بنت عتبة بجسد حمزة عم النبى ومزقت كبده تشفياً وانتقاماً لقتلى قريش في بدر، حينما حدثت هذه الفظائع من قريش وصناديدها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لئن كان لنا غلبة على قريش لنمثلنَّ بقتلاهم أكثر مما فعلوا بنا، حينها نزل قول الله تعالى)

obeikandi.com

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي
مِ لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ
عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا
ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾) [النمل] .

إنه المنهاج الإلهى للرحمة الذي يُزَكِّى ما بنفس النبى صلى الله عليه وسلم من نزوع هو قمة نزوعه البشرى كنبى خاتم أوذى هذا الأذى هو وأصحابه ومتبعيه، فالقرآن الكريم يأمره صلى الله عليه وسلم إن كان هناك عقاب فبالمثل، والصبر أجدى وأنفع للنبى وللمؤمنين، بل الصبر أمر خاص لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو أمرٌ مقرون بعزاءٍ من الله عز وجل وبشرى لمن اتقى وأحسن بأنه سيكون في معية الله تعالى.

من هذا المنطلق الإلهى للرحمة اجتمع في رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن ثمَّ فيمن تبع هداه خصالٌ قلَّما أن تجتمع في نموذج واحد من البشر، الحنكة في القتال والشجاعة والإقدام والصبر والجلد، تلك الصفات التي تورث المحارب غالباً قسوةً في القلب وبعداً عن رقة الطبع التي هي خِصِّيصَة الرحمة واللين، ومع ذلك اجتمعت مواطن الرحمة مع مواطن الشجاعة والشدة في نسيج إنسانى نادر الحدوث: مقاتل محنك وقلب تفيض شرايينه بالرحمة فتدمع عيناه في شفقة ورحمة في أبسط المواقف الإنسانية، حتى في تلك المواقف التي يتأكد فيها انتفاء مواطن الرحمة لتحل محلها مواطن القوة والحسم، فنجده صلى الله عليه وسلم يُؤْذى ويُضْرب، ويقول: (اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون)، ويوم فتح مكة ، ذلك اليوم الذي جعله الله تعالى مكللاً بالانتصار على من آذوه وجعلهم

رهن أمره، حينها قال قولته المشهورة: اذهبوا فأنتم الطلقاء، في ذلك اليوم يروى عمر بن الخطاب أنه لما كان يوم الفتح ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة أرسل إلى صفوان بن أمية وإلى أبى سفيان بن حرب وإلى الحارث بن هشام، قال عمر: فقلت لقد أمكن الله منهم، لأُعَرِّفَنَّهم بما صنعوا، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مثلى ومثلكم كما قال يوسف لإخوته (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين)، قال عمر: فافتضحت حياءً من رسول الله صلى الله عليه وسلم كراهية أن يكون بدر منى، وقد قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال [أخرجه بن عساكر]، ومع نشأته صلى الله عليه وسلم في مجتمع لا يعرف قيمة إلا للسيادة والأسياد، إلا إنه انحاز للضعفاء وانتصر لهم وأخذ لهم حقوقهم من السادة المتجبرين، قال معاوية بن سويد: " كنا مع بنى مقرن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لنا خادم إلا واحدة، فلطمها أحدنا، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: اعتقوها، فقيل: ليس لهم خادم غيرها، فقال: فليستخدموها فإذا استغنوا عنها فليخلوا سبيلها) [أخرجه مسلم] .

كل ذلك وغيره الكثير مع بنى البشر، فما بال رافعى دعوات حقوق الحيوان اليوم حينما يعرفون حرصه صلى الله عليه وسلم على منتهى الرفق بالحيوان، ونهيه عن إيذاء الحيوانات، حتى تلك المؤذية كالحيات والعقارب وغيرها حيث نهى عن تعذيبها حال قتلها والتخلص منها، كما أنه صلى الله عليه وسلم بلغ من رحمته بالحيوان أن حفظ لمخلوقات الله ألا تضار فيما أوجده الله فيها من غريزة الأمومة والحنو على الصغار، قال عبد الرحمن بن عبد الله: (كنا مع رسول الله في سفر فرأينا حمرة

(طائر كالعصفور) معها فرخان لها، فأخذناهما، فجاءت الحمرة تعرش (ترفرف)، فلما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم قال: من فجع هذه بولدها، رُدُّوا ولدها إليها [أخرجه أبو داود بإسناد حسن].

وقد تجلَّت أسمى آيات الرحمة أيضاً في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم في إطار العبادات حيث كان يقول لأصحابه: "إنما بُعِثْتُم ميسِّرين"، وكان يكره الغلو في الدين وتجاوز القصد في العبادة، ولم يكن صلى الله عليه وسلم يُخَيَّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما، فها هو حين علم أن عبد الله بن عمرو بن العاص قرر أن يصوم الدهر ويقوم الليل، يمنعه بشده ويُذَكِّرُه أنَّ لجسمه عليه حقاً ولأهله عليه حقا، وما زال به حتى ألزمه، بعدما رأى من تشدده أن يصوم يوماً ويفطر يوماً، وأنبأه أن ذلك كان صيام نبى الله داود" (30)، كما أخرج البخارى في صحيحه بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه – أنه صلى الله عليه وسلم قال: " إن الدين يسر، ولن يشادِّ الدين أحداً إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشئ من الدلجة"

هذه هي شريعة الإسلام التي ابتعدت عن المشقة وتكليف الأنفس بما لا تطيق فكان الحلال فيها لصيقاً بالطيبات، وكان الحرام مرتبطاً بالخبائث، فيكون المؤمن حال إتيانه الحلال مستمتعاً بالطيبات، ويكون حال بعده عن الحرام كافياً نفسه أذى الخبائث ودرنها، فمن عجز عن الصيام،أفطر، ومن شقَّت عليه الصلاة، عدُّل هيئته بما يلائم حالته الصحية، فلا إفراط ولا تفريط(31)، وحينما جاءه صلى الله عليه وسلم مجموعة من أصحابه يسألونه عن عبادته، ولما خبروها تقالَّوها، وراح كلٌّ منهم يذكر ما سيقوم به من عبادة، وقد أقنعوا أنفسهم أن رسول الله صلى

الله عليه وسلم غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهم ليسوا كالنبي، قال أحدهم: أما أنا، فإني أصلي الليل أبدا، ولا أنام منه شيئاً، وقال آخر! وأنا أصوم الدهر، ولا أفطر أبدًا، وقال ثالث: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا!، يا له من شططٍ أن يتجاهل الإنسان حقوق نفسه وجسده، وهيهات أن يكون ذلك من منهج محمد صلى الله عليه وسلم الذي فصل في هذا الأمر معلناً انتصاره للرحمة، حتى وإن كانت ضد المبالغة في العبادة والفضيلة، فما أن علم بأمرهم حتى سألهم:ألا أنتم القوم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأُصَلي وأرقد، فمن رغب عن سنتي فليس مني" (32).

ليس ذلك فقط، ليس نهياً عن المبالغة في العبادات أو دعوة لرحمة النفس الإنسانية مما يشق عليها، ولكن الأمر يصل إلى حد وصف أولئك المبالغين بالعصاة ، نعم أولئك عصاة من يمعنون في إرهاق أبدانهم ونفوسهم من أجل العبادة، فحين خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح إلى مكة وبلغ موضعاً يعرف بـ (كراع الخميم) صام، فصام الناس، ولما أدرك أن بعض الناس شق عليهم الصيام مع شدة السفر، دعا بقدحٍ من الماء فرفعه حتى نظر الناس إليه، ثم شرب، ولمَّا قيل له: إن بعض الناس لا يزال صائماً: قال: "أولئك العصاة"، عصاة لأنهم برغم مبالغتهم في العبادة إلا أنهم تخلوا عن أعظم فضيلة يمكن أن تؤسس لها الأديان والنظريات وهي فضيلة الرحمة، وتحديداً الرحمة بالنفس الإنسانية، وحفظ عاقبتها وقوتها(33).

ولم تكن الرحمة في منهاجه صلى الله عليه وسلم مجرد فضيلة في ذاتها، بل أداةً اجتماعية عالية الفاعلية في بناء مجتمع صحي سليم، وهذا

من صميم دلالات الرحمة، التي تتولد في الغالب عن موقف يدعو إما للقسوة أو للرحمة، وبدون التفاعل الاجتماعى لا تتأكد هذه الدلالة حيث إن الرحمة التي يلجأ إليها الإنسان تجاه إنسان آخر تتجذر بين أناسٍ تربطهم علاقة أو ينتظمون في سياق إنسانى واحد، فإما أن تعمق بينهم الود والحب فتكون الرحمة وقود هذه العلاقة وباعثها على المزيد من قوة الصلة ومكانتها، وإما أن يكون بين هؤلاء شقاق بفعل الاحتكاك الاجتماعى والمخالطة المعقدة فتكون الرحمة هنا الحد الذي ينتهى عنده هذا الشقاق، فقد قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أيا رسول الله: إن فلانة تكثر من صلاتها وصدقتها وصيامها، غير أنها تؤذى جيرانها، فقال: هي في النار"، لم تنفع هذه المراة صلاتُها وصيامها وسائر عباداتها أمام إيذائها لجيرانها، ليس فقط الكف عن إيذاء الجار، ولكن هناك حقوق أوجبها صلى الله عليه وسلم للجار في ضوء منهاج رحمته السامى سمو رسالته الغرَّاء، يقول صلى الله عليه وسلم في معرض وصايته للجار ألا إذا استعان بك أعنته... وإذا استقرضك أقرضته.. وإذا افتقر عدت عليه، وإذا مرض عدته. .. وإذا أصابه خير هنأته... وإذا أصابته مصيبه عزيته.. وإذا مات اتبعت جنازته.. ولا تستطل عليه بالبنيان فتحجب عنه الريح إلا بإذنه.. ولا تؤذه بقتار ريح قِدْرك إلا أن تغرف له منها.. وإن اشتريت فاكهة فاهد له، فإن لم تفعل فأدخلها سراً، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده" (34).

وكما كانت وصاياه وتعاليمه لأصحابه ومتبعيه عامة مطلقة فيما يخص الأمة والمجتمع، فقد كانت رحمته في شخصه ومع أهله نموذجاً أعلى في تجذُّر أعمق آيات الرحمة الإنسانية بالشكل الذي جعله صلى

الله عليه وسلم يطيل ركوعه عندما يمتطى ظهره أحفاده في رغبةٍ منه أن يجعلهم يستمتعون أكبر قدر من الاستمتاع، هذا التصرف الذي اقترب من جوهر الرحمة الإلهية، فهو يصلى ويركع لله رب العالمين وأحفاده يلهون بظهره الشريف صلوات الله وسلامه عليه؛ كما كانت رحمته ورقيه في معاملته لخدمه صلى الله عليه وسلم ، فلم يعرف عنه يوماً أنه نهر خادماً أو عنَّفه، قال أنس" خدمت النبى صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما قال لى أف قط، ولا قال لشئ صنعته: لِمَ صنعته؟ ولا لشئ تركته: لِمَ تركته؟ وكان من أخجل الناس وأطيبهم نفساً، صاف القلب إذا كره شيئاً رُؤِىَ ذلك في وجهه، وإذا رضي عَرفَ من حوله رضاه"(35).

ومن المفارقات الجميلة في معرض قراءتنا لمظاهر رحمته صلى الله عليه وسلم ما ظنه الناس من أن عظمة النبوة وجلالها طغت على إنسانية الرسول عليه الصلاة والسلام، فلا يحزن كما يحزن الناس، فدُهِشَ من حوله حينما رأوا حزنه الإنسانى يتبدى في ملامحه، وفى دموعه الطاهرة التي فاضت عندما تُوفى ابنه ابراهيم وعندما علم بموت وليد ابنته زينب، فقد روى أسامة بن زيد أن زينب بنت النبى أرسلت إليه: "إن ابنى قد حضر فأشهدنا" فأرسل إليها السلام وهو يقول: "إن لله ما أخذ وما أعطى" وكل شئ عنده بأجلٍ مسمى، فلتحتسب ولتصبر، فأرسلت تقسم عليه، فقام النبى صلى الله عليه وسلم وقمنا، فرفع الصبى في حجر النبى ونفسه تقعقع ، ففاضت عينا النبى صلى الله عليه وسلم، فقال له سعد "ما هذا يا رسول الله؟ قال: هذه رحمة وضعها الله في قلوب من شاء من عباده، ولا يرحم الله من عباده إلا الرحماء".

حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبكى وهو النبى الخاتم، والمحارب الشجاع، والصبور الجلد، والمؤثر على نفسه عندما يملك، فجمع بذلك كله أشتات القلوب بما حباه الله من صلة متينة بين النبى وبين الإنسان(36)، وكما يعلى من شأن الرحمة والتراحم، نجده صلى الله عليه وسلم يحارب الغضب الباعث على القسوة نقيض الرحمة، فكان يَعِدُ من يترك الغضب بالجنة، ويؤكد أن دليل القوة هو امتلاك النفس عند الغضب، ويجعل اللين والسهولة أساساً فيمن تُحَرَّم عليه النار، وكان يقول: إذا جمع الله الخلائق، ناد مناد: أين أهل الفضل؟ فيقوم ناس وهم يسيرون، فينطلقون سراعاً إلى الجنة، فتلقاهم الملائكة، فيقولون: إنا نراكم سراعاً إلى الجنة، فمن أنتم؟ ، فيقولون : كنا إذا ظُلِمْنَا صبرنا، وإذا أُسِيئَ إلينا حلمنا، فيقال لهم ! ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين"(37).

إن هذه بعض نماذج من رحمته بين أصفيائه وأصحابه ومتبعيه، وبرغم عظمها وجلالها إلا والحرص على الحياة، فيعفو حين يملك هذا العفو في أعلى مراتب الكرم التي لم يدانيها أن مواقفه مع أعدائه هي التعبير الأبلغ عن قمة السمو الإنسانى الذي تزيِّنُه الرحمة مع العدل، حيث كان العدل يقتضى في هذه المواقف قصاصاً وحقاً لن يلومه عليه لائم، لكنها طبيعته ورسالته الفياضة بالرحمة والداعية إليها في كل ملمح وفى كل فرصة تسنح للتأكيد والإمعان في التأكيد على أن الرحمة هي الأساس المكين لدعوة الإسلام.

عن جابر بن عبد الله أنه غزا مع النبى قبل نجد، فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم قفل معهم، فأدركته القائلة – أي الظهيرة – في وادي كثير العضاة – أي شجر الشوك – فتمسك رسول الله صلى الله عليه

وسلم وتفرق الناس يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة فعلق بها سيفه وغفا نوقه، فإذا رسول الله يدعونا، وإذا عنده أعرابى، فقال لنا الرسول: "إن هذا اخترط على سيفى – أي استلَّه – وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتاً، قال: من يمنعك منى؟ قلت: الله– ثلاثًا– فسقط السيف من يده، وجلس الأعرابى ولم يعاقبه الرسول" [متفق عليه].

(أيَّة) رحمة تلك التي تمنع إنساناً من أن يفتك بمن أزمع قتله والغدر به، إنها رحمة الله رب العالمين التي أودعها قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعلها نبراساً يهتدي به كلُّ ذي لب حينما تستبد به مشاعر الغضب، والرغبة في الانتقام .

قد يقول قائل إن هذا الموقف من أعرابى جاهل، ربما يكون أداةً من أدوات الدعوة إلى من هم في مثل جهله وغلظته – وبرغم أن ذلك لا يُنْقِصُ من قيمة ما انتهجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا إنه يدفعنا لنتجول في بستان رحمته النبوية لندرك بوعيٍ لا يخطئه بشر مدى ما اجتمع لنبى الإسلام صلى الله عليه وسلم من حلم وحكمة وسمو نفس ، فها هو عبد الله بن أُبَىّ ابن سلول يكيد للرسولصلى الله عليه وسلم في المدينة سراً، وهو يَدَّعى الإسلام والوفاء بالعهد مع الرسول الكريم، فشاع بين الناس أن الرسول قد قضى بقتله فتقدم ابنه وقال: " يا رسول الله، إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أُبَىّ فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرنى به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبرَّ بوالده منى، وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل أبى يمشى في الناس، فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً

بكافر فأدخل النار" ؛ لم يستحب رسول الله صلى الله عليه وسلم لطلب هذا الإبن المؤمن الذي فضل إسلامه على أبيه، بل كافأه بإيثاره ونبله وأعطاه قميصه الطاهر ليكفن به أباه وصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما مات ووقف على قبره حتى دُفن، ولم يستجب لإلحاح عمر بن الخطاب في إثنائه عن الصلاة عليه لما اكتنفه من إيذاء للرسول وللمؤمنين وذكر الآية الكريمة

(

بِأَنَّهُمْ ذَٰلِكَ لَهُمْ ٱللَّهُ يَغْفِرَ فَلَن مَرَّةً سَبْعِينَ لَهُمْ تَسْتَغْفِرْ إِن لَهُمْ تَسْتَغْفِرْ لَا أَوْ لَهُمْ ٱسْتَغْفِرْ

﴿٨٠﴾ ٱلْفَٰسِقِينَ ٱلْقَوْمَ يَهْدِى لَا وَٱللَّهُ وَرَسُولِهِۦ بِٱللَّهِ كَفَرُوا) [التوبة] فقال: لو علمت أنى إذا زدت على سبعين غفر له زدت"

لقد كانت حكمته صلى الله عليه وسلم في هذا الموقف دافعة للأحقاد التي يمكن أن يتوارثها أبناء من هم على شاكلة عبد الله ابن أُبَىّ حينما تتفتح عيونهم على قاتلى آبائهم، فيمتلئون خوفاً وفزعاً وحقداً، بل ترك هؤلاء المنافقين على نفاقهم حتى يكتشف أبناؤهم الحقيقة مع الأيام، فيكسب أجيالاً جديدة نقية من أدران الحقد والوثنية رافلين في فطرة الإسلام(38).

وموقفه صلى الله عليه وسلم من أسرى بدر، تلك الغزوة الفاصلة في تاريخ الدعوة الإسلامية، معروف وجلىٌّ للناظرين، فبرغم ما اقترفه هؤلاء الأسرى من آثام في حق الإسلام والمسلمين ومن إيذاءٍ مارسوه بنفوس قاسية ضد تابعى دين الله، إلا أنه صلى الله عليه وسلم بعد مشورة أصحابه وسماعه رأى عمر الذي رأى قتلهم جميعاً، ورأى أبى بكر الذي ارتأى منحهم فرصة ربما تدفعهم إلى الدخول في دين الله؟ فمال صلى الله

obeikandi.com

عليه وسلم إلى رأي أبى بكر، فأطلق من افتدى نفسه وعفا من الفدية من يُعلِّم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة، ولما تقدم إليه منهم –الأسرى – من يشكو فقر حاله من المال ومن العلم، وما له من بنات في مكة يعولهن أطلق صراحه وتركه يعود لبناته على ألا يناوئ المسلمين مرة أخرى(39).

وكما ذكرنا في الصفحات السابقة موقفه من قريش إبَّان فتح مكة وكيف أطلقهم وعفا عنهم وهو في أوج قوته وانتصاره، وبعد تاريخهم الطويل في إيذائه والطعن في نبوته والكيد له ولمن معه من المؤمنين، ليس ذلك فقط، إنه مع هذا العفو لم ينس أن ينزل زعماء قريش المنزلة التي يحبونها، فزاد في عفوه حينما أعطى أبا سفيان حظوة ومكانة يتمناها فقال: من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن" وزاد كرمه وعفوه فشمل الجميع إلا من بغى وأمعن في جبروته ونيله من دين الله، ما بين محرِّف لكتاب الله خائن لما أؤتمن عليه من كتابة القرآن، وما بين مختلسٍ للصدقات، وما بين هاجٍ سليط اللسان في الدعاية النابية ضد الرسول وضد المسلمين(40).

وعندما بايعته النساء قبل بيعتهم وعفا عن هند بنت عتبة قاتلة حمزة والممثلة بجسده وآكلة كبده، تلك الفعلة التي جعلت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لإن أظهرنى الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلنَّ بثلاثين رجلاً منهم فما الذي منعه أن يمثل فقط بصاحبة الجريمة وحدها، لم يفعل وإنما رحم وعفا وحلم أيمَّا تكون الرحمة، وأيما يكون الحلم والعفو، فبايعته هند على الإسلام وبايعه من معها من النساء، في هذا الموقف الدافع صاحبه إلى أن يحذو حذو القواد والملوك في نصرهم في

تلمس الأبهة والخيلاء، لكن لا أبهة ولا خيلاء بل إعلان عن نهاية عهود الظلم والطغيان، ويطلب من أصحابه تحطيم الأوثان بالكعبة ويتقدمهم هو أولاً ومن خلفه رجاله يحطمون تماثيل الجهل والشرك، ويعود صلى الله عليه وسلم ليعلن أن لا قتل ولا قتال ولا ربا، أسس محمد صلى الله عليه وسلم أقوى أساسٍ لحضارة النبل والسمو الإنساني وامتنع أن تدانيه أرفع حضارات لبنى الإنسان.

obeikandl.com

هوامش

(1) اتفقت أغلب المصادر على أن نسبه صلى الله عليه وسلم الموثَّق ينتهى عند عدنان، أما ما بعد ذلك فغير موثق إلا أن المتفق عليه أن نسبه الأكبر ينتهى عند نبي الله إسماعيل عليه السلام. الشيخ محمد الخضري- نور المتقين في سيرة سيد المرسلين، تحقيق: الشيخ نايف العباس ومحيي الدين مستو، بدون تاريخ نشر، ص 13 : 15.

(2) د. محمد أحمد خلف الله: محمد والقوى المضادة، مكتبة الأنجلو المصرية 1973م ، ص 21.

(3) أبو الأعلى المردودى: مبادئ الإسلام، مرجع سابق، ص 59 : 60.

(4) د. عائشة عبد الرحمن: نساء النبى صلى الله عليه وسلم: دار المعارف–الطبعة الثامنة ، 2005م ، ص 17 ، 18.

(5) د. شوقى ضيف: محمد خاتم المرسلين، دار المعارف، القاهرة ، الطبعة الاولى، 2000 م . ص 83 .

(6) المرجع السابق، ص 87 .

(7) أبو الأعلى المردودي: مرجع سابق، ص 61.

(8) جمال البنا: الإسلام والعقلانية، دار الفكر الإسلامي، القاهرة، 2003م، ص12.

(9) عباس محمود العقاد، الله، كتاب في نشأة العقيدة الإلهية، دار المعارف، القاهرة، الطبعة التاسعة، سنة 1998م ، ص 154.

(10) كارين أرمسترونج، مرجع سابق، ص 151.

(11) عباس محمود العقاد: الله، كتاب في نشأة العقيدة الإلهية، مرجع سابق، ص154.

(12) عباس محمود العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، طبعة مهرجان القراءة للجميع- الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، 1999م، ص 38.

(13) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(14) المرجع نفسه، ص 39.

obeikandl.com

(15) عباس محمود العقاد، الله، كتاب في نشأة العقيدة الإلهية، مرجع سابق، ص110.

(16) المرجع السابق، ص 111.

(17) شارل جينيبير، المسيحية، نشأتها وتطورها–ترجمة د. عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة – الطبعة الثالثة 1988م، ص 50 .

(18) فريدريك يودل: " تاريخ علم الأخلاق"، عن: على عزت بيجوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة محمد يوسف عدس، مؤسسة بافاريا للنشر، الطبعة الثانية، 1997م، ص 353، 354.

(19) الشيخ محمد الغزالى: التعصب بين الإسلام والمسيحية – الهيئة المصرية العامة للكتاب – طبعة مكتبة الأسرة ، 2005 م، ص 90 .

(20) هيربرت بوسه، أسس الحوار في القرآن الكريم: دراسة في علاقة الإسلام باليهودية، ترجمة أحمد محمود هويدى، المجلس الأعلى للثقافة: سلسلة المشروع القومى للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2005 م، ص 86 – 87.

(21) جمال البنا، الإسلام والعقلانية، دار الفكر الإسلامى، القاهرة ، 2003م، ص17.

(22) كارين أرمسترونج: سيرة النبى محمد، مرجع سابق، ص 56.

(23) د. محمد عمارة، معالم المنهاج الإسلامى، دار الرشاد، القاهرة ، الطبعة الأولى، 1997 م ، ص 31، 32.

(24) كارين أرمسترونج: سيرة النبى محمد، مرجع سابق، ص 178.

(25) خالد محمد خالد: إنسانيات محمد، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة، 2003م، ص15– 16.

(26) نفسه: ص 29.

(27) نفسه: ص 30.

(28) د. طه حسين، مرآة الإسلام، مرجع سابق، ص 168، 169 .

(29) عبد الكريم الخطيب، النبى صلى الله عليه وسلم، مرجع سابق، ص 426 ، 227.

(30) د. طه حسين: مرآة الإسلام، مرجع سابق، ص 187.

(31) د. محمد سيد أحمد المسير: شرح الحكمة النبوية، دار المعارف، الطبعة الأولى 2004م، ص 102 – 118.

(32) خالد محمد خالد: إنسانيات محمد، مرجع سابق ، ص 18.

(33) المرجع السابق، ص 17.

(34) نفسه: ص 46 – 47 .

(35) عباس محمود العقاد:عبقرية محمد، مرجع سابق، ص 110.

(36) المرجع السابق، ص 165.

(37) خالد محمد خالد: إنسانيات محمد، مرجع سابق، ص 50.

(38) عباس محمود العقاد: عبقرية محمد، مرجع سابق، ص 115.

(39) كارين أرمسترونج: سيرة النبى محمد، مرجع سابق، ص 314.

(40) عبد الرحمن الشرقاوي: محمد رسول الحرية، مرجع سابق، ص 308

obeikandl.com